حكايات الليالى

٢

بنت الصيّاد وابن الملك
عاقبة الأشرار

بقلم

أمين أحمد العطار

الدكتور عبد الفتاح اسماعيل شلبى

الطبعة الثالثة

دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

« حكايات الليالى » حكايات قصها والد على أبنائه الصغار حين كانوا يجلسون معه كل ليلة ، ملتفين حوله ، ويطلبون منه أن يقص عليهم قصة .
وكان الوالد يجيبهم إلى طلبهم ، ويحكى لهم حكاية من حكايات الليالى . . .
وفى ليلة من الليالى قص عليهم حكاية « بنت الصياد وابن الملك » :

بنت الصيّاد وابن الملك

يُحكَى أَن صيادًا كان يذهَبُ صباحَ كل يَومٍ بشَبكَتِه وقُفّتِه وعَصَاه ، فيُلقِى فى البَحرِ شبكتَهُ ثم يُخرجُها ، ويُلقيها ثم يخرِجُها ، ويَسْتَمِرُّ علَى هذِه الحالِ وقتاً طَوِيلا ،ثم لاَ يَصيدُ من السَّمكِ إلا قليلا ، فيمضِى إلى السّوقِ ويَبيعُه بثمنٍ قَلِيل ، يَعيشُ عليهِ هو وزوجَتُه وبنْتُه عِيشَةَ ضَنْكاً ، وكان عجُوزًا

أَضْعفَ الكبرُ قُوّتَه ، وأَنْحلَ جِسْمَه ، ولمَّا كَبِرتْ بِنتُه أَدركَتْ ما يُقاسيه أَبوها من التّعبِ والنَّصَبِ ، ثم لا ينالُ من الرّزْقِ إلاّ شيئاً قَليلاً ضَيِّقا لايُسْمِنُ ولا يُغْنِى من جوع ، فقالتْ له :

يا أَبِي ،لقَد كبِرْتُ وأَصبحتُ قادِرةً على أَن أَشْتغِلَ وأَشْعرُ أَنه مِن الواجِبِ علىَّ الآن أَنأُساعِدَك أَوْأُريحَك ، وكفَاكَ ما مضَى من الزمَنِ الذى تَعِبْتَ فِيه وربَّيْتَنِى .

قال أَبوها : يعزُّ علَى أَبيكِ أَن يُتْعبَكِ وهُوَ لا يَزالُ حَيًّا فِيه نفَسٌ يَتردَّدُ .

قالت : يا أَبتِ ما خُلِقْنا إلاَّ لِلْعملِ ، وهَبْنِى تزوجْتُ ووَجدْتُ زَوجِى فى حاجةٍ إلَى أَنْ أَشتَغِلَ وأُساعِدَه لنَعِيشَ فى رَخاءٍ وسَعَة ، فَهلْ ستَمْنعُنِى

يا أبت ، إنى كبرت وأصبحت قادرة على أن أشتغل .

حِينَئِذٍ عنْ مُساعدتِه ؟

قال أَبوها : وكَيفَ أَدخلُ بيْنكِ وبينَ زَوجِكِ بما يُوقِعُ الشقاقَ بَينكُما ، ويُعكّرُ عليكُما صَفْوَ مَعيشَتِكما ؟ إنَّه لا يَفْعلُ ذلكَ إلا أَبٌ فى عَقلِه لَوْثَةٌ أَو خَبَل ، والحمد للهِ الذِى حَفِظ علينَا نِعمةَ العَقْل ، وإنْ كُنَّا فُقَراءَ .

قالت : وأَنتَ أَوْلَى الناسِ بمساعدَتِى ، وأَحَقُّهم ببِرِّى .

قال : وَفيمَ تَشتَغِلِين يا بُنَيَّتِى العَزِيزَة ؟

قالت : إنّ جارَنا غنِى ، وعندَه قُطْعانٌ من غَنَمٍ لا تُحصى ، وأَظُنّه يفْرحُ إذَا عرضْتَ عَليه أَنْ أَرْعى قَطِيعاً مِن غَنَمِه ، وذلكَ يا أَبى لا يُكلِّفُنِى إلاّ أَنْ

أَغْدُوَ فِى الصَّباح مَع القَطِيع إلى المرُوجِ الخَضْراء ، وضِفافِ الأَنْهار، ومَواطِن الكَلإِ ، ثم أَرجعَ بالقَطِيعِ آخِرَ النّهار ، وذلك عملٌ يسِيرٌ لا مشَقةَ فِيه ، وسَيكون لَنا مِنْ أَجْرِهِ سعَةٌ فى المعيشَةِ قَد تُغْنِينَا عنْ تَعبِكَ فِى كِبَرِك .

قالت أُمُّها وكانتْ حاضِرَة حَديثَ بِنتِها وزَوجِها :

بُورِكَ فيكِ يا بُنَيّتِى، وجَعلَكِ سَعيدَةً فى حَياتِك ، ما أَبَرّكِ بِأَبَويْكِ ! !

ثم التفَتتْ إلَى زوجِها وقالت :

لاَ تحْرِم ابْنتَكَ مِن بِرٍّ بأَبَوَيْها ، فِيه راحةٌ لها ، وسأَقومُ أَنا عنكَ بِعَرضِها علَى جارِنا ، ورَبُّنا الله يَخلقُ ما يَشاءُ ويختار .

قال الصَّياد : ما كانَ لِي أَنْ أُخالِفَ رأْياً أَجْمَعتُما عَلَيه ، وهاتِه ابنتُكِ فافْعلِي مَعها ما تَشائين .

* * *

ذهبَتْ زوجةُ الصَّيادِ إِلَى امْرأَةِ جارها الغنى وقالت :

إِنّ زَوجِي كبِر وضَعُف ، وعجزَ عن السَّعْي والكَسب والحُصُولِ علَى لُقمةِ العَيْش ، ومن المعْروفِ الذِي تُثابِينَ علَيه أَن تُكَلّمِي زَوجَكِ ليتفَضّلَ بِأَخْذِ ابْنَتِي ترْعى قَطِيعاً مِنْ غَنَمِه ؛ لنَعِيشَ على أُجرتِها ، ولاَ يُرضِيك أَنْ نُضَامَ أَو نَمُوتَ من الجُوعِ ونَحنُ جِيرانكُم .

قالت زوجة الغنِي : كَلامُكِ علَى عَيْنِي ورَأْسِي ، وزَوجِي رجُلٌ طيّبٌ سَبّاقٌ إِلَى الخَيْر ، وسأُكَلمُه حِين يحضُر ، وأَعتَقِدُ أَنّ ذلكَ يَسرُّه ، فشكَرتْها زوجةُ

الصّياد ، ودعَتْ لَها بِدوام عِزها وسَعْدِهَا ، ثم حَيَّتْها وخَرجَتْ .

عرضَتْ زوجةُ الغَنِيّ علَى زَوجِها أَمرَ جِيرانِها ، فتأَثَّر وقال :

المفروضُ أَنّنِي أَرْعاهُم وأُساعِدُهم ، وأُمِدُّهم بالمالِ وإن لم تَشتَغِل ابنَتُهم عِنْدى ، فأَرسِلِي إلى ابنةِ الصّياد لتَرْعَى قطِيعاً من قُطعانِ غَنَمِى ، وسأُعْطِيها كلّ يَومٍ أُجْرة كأُجْرَةِ الرّجُل الذى يَعُولُ أُسرتَه :

قالت : وفّقكَ اللهُ إلى الخَير ، ذَلك مَعرُوفٌ سَيرُدُّهُ اللهُ فى أَولادِكَ أَضْعافاً مُضَاعَفَة ، ولقَد بَيَّضْتَ وجهى ، بَيّضَ اللهُ وَجْهَكَ .

كانت بنتُ الصَّيادِ تَرعَى قَطيعَها من الغَنم كلّ يوم

وقد بارَكَ اللهُ فى قَطِيعِها فكانَ أَحْسنَ مِن غَيرِهِ ، كما بدت للغَنىِّ وزَوجَتِه رَضِيَّةَ الخُلُقِ ، ذكِيةَ الفُؤَادِ ، فَفرِحا بها وَرِضيا عنْها .

• • •

وبيْنَما كانتْ تَرعى قطِيعَها ذاتَ يَومْ بِجِوارِ غابةٍ كثيرةِ الأَشجار والحشائِش عثرت بأَسدٍ مُلقى على الأَرضِ وهو يئِن ويبْكِى .

فقال لها : أَسعِفِينى أَيتُها الفتاةُ الكريمة ، وأَنْقِذينِى مِن الأَلَم ، وانْزَعِى مِن فَخِذى ذَلك السّهْم ، فَقد جعلَنِى لاَ أَستطِيعُ مشْياً ولا حرَكة ، وقَد اشْتَدّ بِى الجوُعُ والعَطَش ، حتَّى أَشْرَفتُ علَى الخَطَر .

قالت بنتُ الصياد : أَخْشَى أَنْ يدْفَعكَ الجوعُ

بعدَ أَن أُخرِجَ السّهمَ من فخذِكَ فتطْمَع فى خَرُوفٍ أَوْ نَعجَةٍ مِن هَذَا القَطيع الذِى أَرْعَاه لمالِكِه، وائْتَمنَنى علَيه ، ولَو كُنتُ أَملِكُه ما بَخلتُ عليْكَ مِنه بمَا يُشبِعُكَ .

قالَ الأَسَد : ليسَ مِن طَبْعِنا – نَحنُ الأُسُودَ – الغَدْرُ والخِيانَة ، ولاَ يَليقُ بِشُجَاع قادِر مِثْلِى أَن يُقابِلَ الإِحسانَ بالإِساءَة ، فَلكِ مِنى الأَمانُ والوَفاءُ .

تأَثّرت البنْتُ بِحالِه وقَوْلِه ، فوَجدَتْ نفسَها مُسرِعةً إِلَيْه ، ونزَعَت السَّهْمَ مِن فخذِه ، وضَمدَتْ جرحَه ، فنَهضَ فِى الحالِ وَشكَرها ، ثم حَيّاها ، وَمَضَى إِلَى سبيلِهِ فى الغَابة .

* * *

وبينَما كانتْ بنتُ الصّيادِ ترعَى قَطيعَها يوماً

آخرَ بجوار الغَابة عَثَرَتْ بِنمرٍ دَاخِلَ قَفصٍ من حَدِيد ، وضَعه صَيادٌ وثَبّتَه فِى الأَرض ، ومَضى إلى شأْن له آخرَ ، عازماً علَى أَنْ يَعُودَ بعدَ مُدَّةٍ طَويلة يكون القَفصُ فِيها قد صَادَ فَرِيسة ، وكانَ قد فتَح بابَه ، ووضَع فِيه قطعةً من اللَّحم ، فَمرّ بهِ نَمرٌ كبِير ، ولمّا رأَى فِيه اللحْمَ دخَله ليأْكُلَه ، فلمّا جَرَّ القِطعةَ بِفَمِهِ سمِع صوتَ حركَةٍ فى القَفصِ من خَلفِه . فالتفَتَ وراءَه فوجد بابَ القَفَصِ قد أُغْلِقَ ، فقال فى نَفسِه :

آكلُ اللحم ، ثم أَفتَحُ الباب وأَخْرج ، فإِنّ فَتحَه لا يعجزُنى .

أَكلَ النّمرُ اللحمَ وذهَبَ إلى البابِ ؛ وحاوَلَ أَن يَفتَحَه فلم يقْدِر ، فحزِن حُزْناً شَدِيدًا ؛ وجَعل يدورُ

فى القفص ويَنظُرُ حَوالَيهِ ، لعلَّة يَرى أَحدًا يَستَغِيثُ بِه ويرجُو مِنْه أَنْ يُطْلِقَه ، فَما كادَ يَرى بنتَ الصيادِ حتَّى نَاداها مُسْتَغِيثاً بها . فلمّا قدِمَتْ إليْه قالَ لها :

أَطْلِقِينى من سجنِى هذا ، وسأَحفَظُ لكِ هذَا المعْروفَ مدَى الحيَاة .

قالت : إنكَ مَعروفٌ بالغَدْرِ والخِيانة والجُحودِ بالنِّعمة ، فماذا يَقولُ الناسُ عنِّى إنْ أَنا أَطْلقتُك وأَكلْتنِى وأَكلتَ قَطِيعِى ؟ !

قال النمر : وكيفَ يَقعُ هَذا مِنّى ؟! وكيْفَ تتصَوَّرِينَه؟! إنّكِ تَهَبينَ لِى حَياتى ، ولاَ يَنْسَى فَضلَ مُهْدِيها أَوْ ينكرُهُ ويَجحدُهُ إلا مَجْنون ، فعَجِّلى بإطْلاقِى قَبلَ أَنْ يأْتِىَ الصّيادُ فَيحُولَ بينَكِ وبَينَ هذِه الهِبَةِ العَظِيمة .

غَلبَ على الفتاةِ ما طُبعَتْ عليْهِ من مُرُوءَةٍ وَرحْمة ، وفَتحتْ بابَ القَفَص ، فَانْفَلَتَ النّمِرُ مِنْه مُسْرِعاً ، وَكشَرَ عَن أَنيابِه وقال لها :

لا تَبْرحِي مكانَكِ ؛ واخْتارِى لَكِ مَوتةً تُعجِبُكِ .

اندهشَتْ البنتُ وقالت :

لقَدْ كنتُ بعدَ استِغاثتك وتذلُّلِكَ ، أَنتظرُ حمدَك وشُكْرَكَ ، أَعرَفْتَ أَنّ الغدرَ لا يُفارقُك ؟!

قال : أَعْرِف ذلِك ،فَلا تلومِينِى ولوُمِى نفْسكِ .

قالت : تَعالَ مَعِى نَحتكم إلى أَول حَيوان يُقابِلُنا ، وعلينا أَن نَرضَى بحُكْمِه ؛ سواءٌ أَكان لِى أَمْ علَيْكَ ،

قال : لا بأْسَ فى ذلك .

. . .

ساقت البنتُ قطيعَها أَمامَها والنمرُ معها ، وبَعد

قليل اعْترضَهما أَسَدٌ كان خارجاً من الغابة ، وفرحت البنتُ إِذْ كَانَ ذلك الأَسَدُ هو الأَسد الذِى أَخرجت السَّهْمَ من فخذِه فقالت :

فلْنَحتكمْ إلى هذا الأَسد ولَو أَنه مِنْ فَصِيلتك .

قال : لسْتُ من أَهْلِهِ ولا مِن أَصْدِقائِه ، ولا بـأْس علَينا إذا احتكَمنَا إليه .

كانَ الأَسدُ فتًى مَسْحوراً . وإذا كان السِّحرُ قد مسخَ صُورتَه الجِسميةَ ، فإِنهُ لم يَمْسُخ إِنسانِيتَه ومُروءَته وتفكِيره .

قَصَّت البنتُ القصةَ على الأَسدِ ، فقَال الأَسد بعد سكْتةٍ قَصِيرة :

وكيف أَحكُمُ فى قَضِيّةٍ مِثْل هذهِ دُونَ أَنْ أُشاهِد مَوقعَ حُدوثِها ، وكَيْفَ وقَعتْ ؟ !

قالَ النمر : ـ وكانَ فِى خَوفٍ شَديدٍ من الأَسد ، ولاَ يُريدُ أَن يُخالفَه حتّى لا يُغضِبَه ـ : وماذا تُريدُ بقَولِكَ هذا ؟

قال الأَسد : أَريدُ بقولى هذا أَن تَفْهم أَنّ القاضىَ لاَ ينْبغِى له أَنْ يُصدر حُكمَه فى قضِيَّةٍ قَبْلَ أَن يفْهَمها . فهَلْ فهمت ؟

قال النّمر : نَعم فَهمتُ .

قال الأَسد : هَيَّا بنا نَذْهبُ إِلى مكَان الحادثة ، لأَعرفَ كيف وَقعت .

قال النمر : لا بأْسَ فى ذَلك .

ساقَت البنتُ قطيعها أَمامَها والأَسدُ والنمرُ معَها حتّى كانَ جَميعُهم عِندَ القفَص ـ وكان الصّيادُ

فلنحتكم إلى هذا الأسد ولو أنه من قبيلتك . . .

لا يَزالُ غائباً لم يَحضُر ـ فقال الأَسد :

قُصَّا علىّ قِصَّتكُما ، فأَعادتِ البنتُ عَليه القِصّة ،

دار الأَسدُ حَولَ القَفصِ ينظُرُ إليْه ، ثم التفتَ إلَى النّمرِ وقال :

كيفَ دخَلتَ هذا القَفص ؟

قال النّمر : دخلتُه من بابِه هذا .

قال الأَسد : أَرِنى كيف دخَلْتَه ، فتحرك النّمر ودخَلَ القَفَصَ أَمام الأَسدِ وقال :

هكذا دخَلتُه . والتفتَ الأَسدُ إلى البِنت وقال :

وكيْفَ كان البابُ مُغلَقاً ، فتقدمت إلى البابِ وأَغلقتْهُ إغلاقاً مُحكماً وقالت :

هكذا كان البابُ مُغْلقاً .

نظرَ الأَسدُ إلى النّمر نَظْرة اسْتهزاءٍ وسُخْريةٍ وقال : عَليْكَ أَن تَبقَى فِى قَفصِكَ حَتّى يأْتِىَ صاحِبُه ، والتَفت إلى البنتِ والابتسامةُ تعلو شَفتَيْه وقال :

ولَكِ أَنْ تذهَبِى بقطِيعكِ هذا حيثُ تَشائين فلاَ خَوفَ عليْك .

• • •

ساقَت البنتُ قَطِيعَها إلى المرعَى أَمامَها ، ومَشَى الأَسد بِجِوارِها وجَعلتْ تشكُرُ له فَضْلَه فقالَ لها :

لقَد سبَقَ إلىَّ فَضْلُكِ ، وغَمرْتِنِى بمعرُوفِكِ وإِحْسَانِكِ ، ولكنَّ لِى حَاجة عِنْدَكِ ، وأَعتقِدُ أَنّها لَنْ تُقضَى إلاّ علَى يدَيْكِ .

قالت : لكَ عِنْدِى كلُّ شىءٍ تُريدُه ، ولا رادَّ

لأَىِّ شَىءٍ تطْلُبُه ، فهاتِ ما عِندَك .

قال الأَسد : إِنّى لَسْتُ أَسدًا حَقيقيًّا ، وما أَنا إلا فَتًى مَسْحور .

قالت فى دهشة : ومَن تَكونُ ؟ ومن سَحرَكَ ؟

قال : أَنا ابْنُ مَلِكِ المدينةِ التى تأْتِينَ بِغَنَمِك مِنْها . ماتَتْ أُمِّى ، وكَرِهتْنِى زوجةُ أَبِى حِينَ كبِرتُ ، وأَرادتْ أَنْ تتخلّصَ مِنِّى ، فاسْتأْجرتْ عجوزًا ساحِرة ، وأَغدقَتْ علَيْها المال ، وأَمَرتْها أَنْ تَسحرَنى وتَنفِينِى مِنْ قَصرِ أَبى ، فسحرَتنِى تلِك العَجوزُ أَسدًا لا أَبرحُ هذِه الغَابة .

قالت : وأَينَ هذه العَجُوز ؟

قال الأَسد : إِنَّها تُقيمُ فى كُوخٍ بهذه الغَابة ،

وتذهبُ كُلّ يَومٍ إلى مَدينَة أَبى علَى أَنَّها تَفُكُّ عقمَ النّساءِ وتطْردُ الشياطين عن الأَولاد ، وتَقَرِّبُ بَينَ المرْءِ وزوجِه .

قالت : ومَاذَا أَفعلُ حتّى أَعتقَكَ من سحرِك ؟

قال : سَمِعتُ العَجُوزَ الساحرَة تقولُ لزوجة أَبى بَعدَ أَنْ سَحرتنِى : لا يَفُكُّه من سحرِهِ إلا بنتٌ بِكرْ ، بارةٌ بأَبَويْها ، ذات مرُوءَة ورحْمة ، وقَدْ وجدتُكِ تتحلَّيْن بهذهِ الصفاتِ المجيدة .

قالت : فهمتُ هذا ، ولكِنْ مَاذَا أَفْعل ؟

قال : سَمِعتُها تقُول : وهذه البنتُ لا تُخلصُه من سِحْرِه إلا إذا أَخَذتْ سَيْفَ أَبيه الملِكِ وشقّتْه به نِصْفيْنِ بضَرْبةٍ واحدةٍ حَين تشرقُ الشَّمس ، فإنَّها إنْ فَعلتْ هذا انْقَلبَ فِى الحال فَتًى أَجمل مِمّا كان ،

فالمشكلةُ التى أَمامَكِ هى الحصُولُ علَى سَيفِ أَبى ، وهو سيفٌ يدُه من ذهَب ، وطرفه مكْسُورٌ ، وهذه المشكِلَة متروكةٌ لذَكائِك ومروءَتِك ، وأَنا فى هذهِ الغَابةِ أَنتظِرُك .

قالت : لقد وهبْتَ لِى حياتِى بتخليصِى من النَّمر الغادِر ، فإذا ضيَّعتُها فى سَبيلك فَهِى مِنْكَ وإليْك ، وسأَسْتَعِينُ برَبِّ الذِى لا يَرضَى لِعباده ظُلْماً ، وإلى اللقاءِ أَيُّها الفَتى الكَرِيم .

• • •

كان الملكُ حَزِيناً على ابنه ، إذ فَقَده بغْتةً ولا يعرف له مقَرًّا ، ولاَيدْرِى أَمِن الأَحياءِ هو أَم من الأَمْوات ، وقد تَعِب فى البحثِ عَنْه ، وفى مَعرِفةِ خَبر عنْ فَقدِه ، وكيفَ فقده بَغْتة وهو فى قَصرِه ، ولكنَّهُ لم يَصِل إلى

شيءٍ ، ولبثَ بضْعَ سِنينَ وهو لاَ يَنْساه ، ولا يُفارقُه الحزنُ عَليْه ، ولا يَزَالُ يُصدِّق الأَوْهام ، ويَجرِى وراءَها ، ليحْصُلَ على ابْنِه وفلْذةِ كَبِدِه ، وكَثيرٌ من المنَجِّمين خَدعُوه وفَشِلُوا ، ولكنّه لا يَزالُ إذا سَمِعَ عَن أَحدِهِم أَحْضَره ، وتشبَّثَ بِهِ وجَرى وراءَ أَوْهامِه ، مَهْما تكُن مَزاعِمُه .

شَغلَت بنتُ الصياد نَفْسها بأَمْرِ ابن المَلِكِ والتَّفكِير فِيه ، وكَيفَ تَحصُلُ على سَيفِ أَبيه ، حتّى اهْتدَتْ إلىَ حِيلةٍ ناجِحة ، فماذا فَعلَتْ ؟

باعت خَرُوفين من القَطيع ، واشْتَرتْ بثَمنِهما مَلابسَ لرجلٍ مَغربىٍّ ، ومبخَرةً وأَنواعاً من البخور وقطْعةً من البِنْج الطَّيار ، فَعلتْ هذا وهِى راجِعةٌ بالقَطيع إلى بَيت الغَنىِّ ، وكانَ بيع الخَروفَين لتاجِرٍ منْ مدينةٍ

أُخرى كانَ فى طَريقه عائدًا إليْها .

أَدْخلَت القَطِيعَ حَظِيرته وأَغلقتْ علَيْه ، ثمَّ ذهبَتْ إلى بيتِ أَبيها لتبيت عندَه كعادتِها ، علَى أَنْ تقوم فى الصّباحِ إلى قطيعها لتأْخُذَه إلى المَرْعَى ، وقبيل الفَجْرِ كانت قد لبِستْ ثياب المغربِى وعمامتَه وأَلصقَتْ بوَجْهِها ذَقْنًا صِناعية سَوداءَ تُسايرُ عُمرَها ، ثم خرجَتْ مِن بَيتِ أَبَويْها وهُما نَائِمان . واستمرَّتْ سائرةً حتَّى خَرجَتْ من المدِينة ، وانْتَظَرت حتى طَلَعت الشَّمس ، ثم رجَعتْ إلى المدينةِ رجلاً مَغربيًّا فى زِيِّها الجَديد ، ومضَتْ إلى قَصرِ المِلِك ، وعنده جَعلَت تُنادِى :

مَغْربىٌّ يُبيعُ البَخْتَ النّاعِس والنَّابِه ، ويكشفُ عن المالِ المسْرُوق والتائِه ، انظر بَختَكَ يا حَزِين ، فَتّشْ

عَنْ مالِك الضّائِع يا مِسْكِين ، وكانتْ تقول هذا بصَوْتٍ جَهْورىٍّ جميل ، ذِى نَغماتٍ شجِيةٍ مُثيرة .

سَمِع الملِكُ نِداءها فثارَتْ أَحزانُه على ابْنِه ، وأَمَرَ فى الحال أَنْ يأْتُوهُ بهذا المغْربِىّ لعلَّهُ يدلُّه على ابنهِ ، أَو يأْتِيه بخَبَرٍ عَنْه ، فَجِىءَ بِه فى الحال ، وأَمرَه بالجلُوس فجلَس ، وقَص علَيهِ قِصّةَ ابْنِه ، وأَنه فَقَدهُ مُنذُ بِضْع سِنين ولا يَعرف له خبرًا ، وأَخبرَه أَنّ كثيرًا من المنَجِّمين والعَرَّافِين سَبقُوه وحاوَلُوا أَنْ يسْلكُوا السّبِيلَ إِليْه ولكِنَّهم فَشِلوا .

قال المغربى : لن تَرَى بفَضْلِ اللهِ فَشَلا ، وسَتكونُ النَّتيجةُ سارَّةً مُرضِيَة . وسَيدعُونى هذا الأَمرُ إِلَى أَنْ أَسْهرَ تحتَ النّجُوم فى مكانٍ مُنْعزِلٍ أَخْتارُه أَنَا ، قال الملكُ : هذهِ حديقةُ قَصرِى وَاسعةٌ فانزِلْ

إليْها واخْتَر المكانَ الذِى تراه صَالحاً .

قالَ المغربى : وسأَسْهرُ اللّيل أَتْلو العَزائِمَ على دُخَانِ البخور مُدةَ أُسبُوع ، أَتوقّعُ فى خِلاَلِه الفَرجَ من عِنْدِ اللهِ العلِىِّ القدِير الذى لا تَخْفَى علَيْه خافِية .

قال الملك : ولكَ ماشئتَ من طَعام وشَرابٍ وَرَاحة ، وسآمرُ خَدَمَ الحديقةِ أن يكُونُوا فى طَاعَتِك وتحت أَمرك .

• • •

نَزل المغربىُّ واختارَ المكانَ فِى الحدِيقةِ ، وأَمرَ أن تُطْفأَ مصَابيحُ الحديقةِ وألا يأْتِيهَا ضَوءٌ من مَصَابيحِ القَصْرِ حِين يجلسُ لِتلاوَةِ عَزائِمه ، وباتَ اللَّيلةَ الأُولىَ يُتمتِم كأَنَّه يتلُو عَزائِمَ قَدْ حفِظَها عَنْ ظَهرِ قَلْب ، علَى دُخَانِ البخورِ الذى انْتشرتْ رائحتُه فى

إن الجن طلبوا منى سيفك ؛ ليساعدهم على معرفة أبنك . . .

أَرجاءِ الحدِيقةِ والقَصْر ، وفى الصَّباح نام حتَّى استَوْفَى راحَتَه ، وحَظَّه مِن نَومِه ، وعِندَ غُروبِ الشَّمسِ ذَهبَ إلى الملكِ وقالَ لَه :

إن الجنَّ طَلبُوا مِنِّى سيفَك ؛ ليُساعدَهم على مَعرفَةِ ابْنِك ، وقالوا لى : إن سيفَ الملكِ يدُه مِن ذَهَب ، وطرفه مكسور ، وقَدْ شَغله عن إصْلاحه ضَياعُ ابْنهِ .

وجَدَ الملكُ أَن المغْربىّ أَخبرَه عَنْ أَشْياءَ صَحِيحة لمْ يكُن يَعرِفُها مِنْ قَبْلُ ، فَوَقَعَ قولهُ فِى نَفْسِه مَوقع الصِّدق ، وفَتَح أَمامَه أَبواب الأَملِ فى العُثور علَى ابنِه ، فناولَه سَيفَه ، ووَصّاه أَن يَزيد اهْتمامَه بأَمر ابْنِه ، ووعَدَه مُكافأَةً قَيِّمَة .

قال المغربىّ : أَرجُو مِن اللهِ التّوفيق ، وأَنْ تكونَ

البشَائرُ التى بدَتْ لى ليلةَ أَمْس بشَائرَ خَيْرٍ وفَرحَة ، ثم أَخذَ السَّيفَ فى قِرابه وذَهبَ إِلى مَعْزلِهِ ، وبَعد العشاءِ أَوقَد المبخَرَةَ ، ووضَع البخورَ ، وأَخَذ يُتمتم حتّى انتصَفَ اللّيل ، ونام القَصْرُ والحديقَة بمنْ فِيهما ، ثُم تركَ المبخرةَ والبخورَ وأَخَذ سيفَ الملكِ وذهبَ نَحو بابِ الحديقَةِ ، فوجدَ البوابَ فى عزِّ النوم ، فوضَعَ أَمامَ أَنفِه قطعة من البنج الطيّار حتى خدِر ، وصار كأَنه مَيّتٌ مِن الأَموات ، ثم أَخذَ مفتاحَ باب الحديقة مِن مكَانِه فى حجُرةِ البَواب ، وكان قد عَرفه منْه مِن قَبل . وفَتَح البابَ وخَرج ، ثم أَغلقَه وأَلْقى المفتاحَ داخِل الحَدِيقة .

* * *

ومضَى المغربى نحو الغَابة ، ولبثَ بَعيدًا عنْها حتى

بان ضَوءُ الفَجر ، ثم أَسْرعَ ماشِياً إلى حَيثُ يُقيمُ ابن الملك فى الغَابة ، وَكانَ قد عَرّفهُ بمكان إقامتِه فيها ، فوجَدَه مُسْتيقظاً فأَبْتَدره قائلا :

لَسْتُ رجُلا مغربيًّا كما تَرى ، وما أَنا إلاّ بنتُ الصّياد التى تَسْعى لتَخليصِك من السّحر ، تَنكَّرتُ فى هذا الزِّى لأَحْصُلَ على سَيفِ أَبيك ، وقد نجحتُ وأَحْضَرتُه ، وهَا هُو ذَا ، ثم جرّدتْه من قِرابِه ، وقلبتْه بيْن يَديْه ، ففرِح وقال :

هذا سَيفُ أَبِى ، وما بَقِىَ إلا أَن تَشُقّينِى به نِصْفين حينَ تشرقُ الشمسُ بضَربةٍ واحِدةٍ قوِيّة ، وحِينَ طَلعَت الشمسُ ضَربتْه بسَيفِ أَبيه ضَربةً واحِدةً بكل ما فِيها من قُوّة ، فانشقّ الأَسد نِصْفين عن فَتًى جَمِيل ، وكان ابْنَ المَلِك ، فقال :

حَمدًا لله وشُكْرا لَكِ أَيَّتُها الفتاةُ الكَرِيمة ، هَيّا بنا نرحَل إلى قَصرِ أَبى لنعجلَ بسُروره وفَرحِه ، فَقَد حمل من الأَحزانِ والآلامِ لغيْبَتى عَنه هذِه السّنوات ما لا تَحملُه الجِبال .

قالت : وسأَدخُلُ عليه مَعكَ فى زِيِّى هذا وتَنكُّرِى ، حتى نُفاجئَه بالحقيقَة .

قال : هذا حَسَن .

مَضَى ابنُ الملكِ ومعهُ المغْربى إلى قَصرِ أَبيه ، وحِينَ دخَلَ بِه المغْرِبىُّ هاجَ منْ فى القَصْرِ فَرحاً ، ودوّتْ زغاريدُ الجوارى فى أَنحائه ، وتسابَق الخَدمُ والجوارى إلى الملكِ يُبَشرُونَه بقُدومِ ابْنِهِ ويهنّئُونه ، فنهضَ من فِراشِه — وكانَ لا يَزال نائِماً — وأَسرع فَرِحاً إلى

ابْنِه ، فتَلقّاه فِى صَدرِه ، ولبِثَ طَويلا يحْتضِنُه ، وأَعينُهما تفيضُ مِن الدمْع فَرَحاً باللقَاءِ بَعد طول الغِياب .

وفى جلسَةٍ جامعةٍ حَضَرها الأُمراءُ والأَعيان الذِين جاءُوا للتَّهنئَة قصّ ابنُ الملكِ قصَّته ، وما فعلتْه بنتُ الصّيادِ من المعْروفِ مَعَه ، وهُنَا أَلقَت بنتُ الصّياد العِمامَة والذَّقْن الصّناعِيّة ، وحكَتْ ما فَعلتْه ، وطلبَتْ من الملكِ أَنْ يدْفَعَ للغَنِى ثَمن الخَروفَينِ اللذَين باعَتْهما لتشترِىَ بثَمنِهما مَلابِسَ التَّنكُّر .

وقَع هذا اللقاءُ وزوجَةُ الملكِ فى غُرفتِها ، غارقَةٌ فى حُزنِها وخِزْيِها ، وتَنتظِر مَصِيرها ، وأَمرَ الملكُ فى الحالِ أَن تَحضُر بينَ يَدَيْه ، فلما حضَرتْ سأَلَها عما فعلتْه بابْنِه . فما استطاعتْ أَن تُنكِرَ شيئاً ،

فأَمرَ بإعْدامِها ، ولكن ابنَه شَفَع لهَا عِنْد أَبيه ، فَقبلَ شَفاعتَه وأَمَر أَن تُلقَى فى السّجن وتلبثَ فِيه حتى ينْقضِىَ أَجلُها .

• • •

أَما العجوزُ الساحِرة فإن الملك أَمر جماعَةً من الجنْدِ تحتَ قيادة رئِيسِهِم أَن يحضروها من مسْكَنها بالغابة ، فذهبُوا إليها ومَعَهم ابنُ الملك الذى دلَّهُم على كُوخِها فى الغابة ، وأَحْضَروها ، فلما وقَفتْ بين يديه ، وسأَلها عما فَعلَتْه بابْنِه اعترفَتْ وقالتْ :

إن ما فعلتُه كان بتَحريضِ زوجتك ، وقد أَنذَرتنى الموتَ إن لم أَستَجِبْ لها .

قال : ولمَ لَمْ تخبرينى سِرًّا بما فعلتِه ، حتى

لا نلبثَ أَنا وابنِى فى هذا العذاب الطويل الذى قاسَيناه بِضْع سنوات ؟

فسكتت العجوز ولم تستطعْ أَنْ تجيب .

فقال الملك : إِنَّ فى وجودك خَطَرًا على النَّاس ثُمَّ أَمرَ بِإِعدامها ، فأُعدمَتْ فى الحالِ .

* * *

طلبَ الملكُ فى حَضرة ابنه من بِنْتِ الصّياد أَن تطلبَ مِنْه ما تَشاءُ مكافأَة لها على مَعروفها ، فقال ابْنه :

أَرجُو من أَبى أَن يُزَوجَنِيها ، فقلَّ أَن نجد أُنْثى فى مُرُوءَتِها وعِفَّتِها وذكائِها وجَمالها ، وهذا الزواج أَعظَمُ مكافأَة لهَا وأَكبر هديَّة لِى .

فهنيئاً لكما هذا الزواج الميمون

قال الملك : لقد سبقتَنِى إلى رغبةٍ كانَتْ تجول فى نَفسى ، فهنيئاً لكما هذا الزواجُ المَيْمون.

* * *

ثم أَحْضَر الملكُ أَبويْها ، وأَجْرى علَيهما من مالِه ما أَسْعدهما ، وأُقيمت الأَفراحُ ، وزفَّتْ بنت الصياد إلى ابْنِ المِلك ، وعاشا فى سعادةٍ وهناءَة حتى انتَهى الأَجل . وكانَ برُّ البنْتِ بأَبويها سبباً فى سَعادتِها وسعادة أَبَويْها . . .

فرغ الولد من حكاية «بنت الصياد وابن الملك» ، فسر الأولاد وفرحوا ، ثم قال الولد : موعدنا الليلة التالية حيث أحكى لكم حكاية أخرى من « حكايات الليالى » . . . طاب مساؤكم ، وتصبحون على خير . . .

وكانت الليلة التالية فجلس الأولاد ملتفين حول أبيهم مسرورين ، واستمعوا إلى ما يقصه عليهم أبوهم من حكايات الليالى . . .

وكانت حكاية الليلة . . . حكاية « عاقبة الأشرار » :

عاقبة الأشرار

هَذا رجل غَنِىّ يَملِكُ أَرضاً خِصْبَةَ التُّربة ، واسِعةَ الرُّقعَة ،قد امتدَّ على رأْسِها نهرٌ جارٍ لا ينقطع ماؤُه ، ولا يجفّ شاطِئاه فَهِى تُسْقى منه كُلَّما كان الزرعُ فى حاجة إلى الماءِ ، ومالكُها الغَنِىّ يَحصل مِنْها كُلَّ سَنَةٍ علَى مَحْصولٍ كَثير ، ورِزْقٍ عَظِيم وَفِير ، وَيقومُ هو نفسه بإدارة شُئونِ ضَيْعتِه إدارةً دقيقةً حَازِمة ، قائمةً علَى العَدْلِ والرأْفةِ وإكرامِ العُمالِ الذِين يعملون

فِيها مِن الفَلّاحين فَلا يجُورُ عليهم ولا يَبْخل ، ولا يحجُبُ عَنهم خيرهُ وبِرَّه ، ولِهذا أَحَبُّوه وخَدمُوه بإِخْلاصٍ وأَمانةٍ ووفاءٍ ، وكانت الضَّيعةُ تَأْتِى له بأَبْركِ الثّمَرات وأَجْودِها .

كانَ مِن بَينِ عُمَّالِه الذِينَ يَعْمَلونَ فى ضَيْعتِه عامِلٌ فقِير ، امتازَ بِذَكائِه ، وحسْنِ تَصريفهِ ، والإِجادةِ فى عَملِه ، وكرِيم خُلقِه ، كما عُرِفَ بالصِّدقِ فِى القَوْل ، والإِخلاص فِى العَمَل ، والوفاءِ بالعَهد ، وهُو إِلى ذلِكَ كلِّه شُجاعٌ وشهمٌ كرِيم ، ولهذا أَحَبّه الغَنىُّ وأَعزّه وَقَرّبَهُ مِنْه ، فَكانَ مُسْتشَارَهُ المُخلِصَ الأَمين .

عاشَ هذا الغَنِىُّ وزوجَتُهُ فى قَصره الفَخْمِ الكَبير ، مُسْتَمتِعَيْن بِسعةِ المعِيشَةِ ورخَائِها ، ولبثَا يرتقبان

أَنْ يَرْزُقَهما اللهُ بِوَلَدٍ يَملأُ القَصرَ حَياةً وحَرَكَة ، ويَملأُ صدْريْهما سُروراً وفَرْحَة . ولكِنْ :

ماكُلُّ ما يَتَمَنَّى المرءُ يُدْرِكهُ
تَأْتِى الرياحُ بما لا تَشْتَهِى السُّفُنُ

كانَتْ هذِه الزوجةُ عَقِيماً لا تَلد ، ورأَتْ من زوجِها رغْبةً شَدِيدةً مُلِحَّةً فى أَنْ يكونَ لَه وَلَد ، فقالتْ له :

إِنِّى امرأَةٌ عَقِيم ، ولاَ رجَاءَ لكَ فى ولَدٍ مِنِّى بعد هذِه المدَّةِ الطّويلَة ، والعِشْرَةِ المديدَة ، وأَرَى أَنْ تَتزوّجَ مِنْ فَتاةٍ وَلُود ، فَعَسَى اللهُ أَنْ يَرْزُقَكَ مِنْها بوَلَدٍ يكُونُ قُرّةَ عيْنٍ لى وَلَك .

قال الغنى : هَل نَسِيتِ أَنّ هَذا الولَدَ سيكُونُ ابن ضرَّتكِ ؟

قالت : ما نَسِيتُ هذا ، فإنّى أَعرِفه ، وأَعرفُ أَن الضَّرَة ثَقِيلةُ الظِّل ، وأَنّ الضَّرة لاَ تُطاق ، وأَنها لا تَقعدُ عن الكيد لضرتها ، وأَنّ لها فى ذلك حيلاً تعجزُ عنْهَا مردَة الشياطين ، ولكِنّ حِرمانَكَ مِن الولَدِ أَشَقُّ علَى نَفسِى من ضرّتِى ، ولَيْسَ فى زواجِكَ من الضرة حِرْمانٌ من نعْمَةِ الولدِ التى يَنشُدها كلُّ رَجُل ، وكُلّ ما فِى الأَمْرِ أَنَّها ستُشاركنِى فِيك ، وفِى مَعيشَتِك الهَنيئَة ، ولا يَنْبَغِى أَنَ تكُونَ كَراهِيتى للمُشاركةِ سَبباً فى حِرْمانِك من وَلدِ سيكونُ امتِدادا لحياتِكَ مِن بَعدِك .

قال الغنىّ : لقدْ فكرْتُ فى هذا ، ولكنِّى سَكَتّ عَنه وَطرحْتُه جانِباً ؛ لأَنى لا أُريدُ أَن أُزْعجكِ بضرّةٍ تقاسِمُك ما أَنتِ فيهِ من هناءَة .

قالت الزوجة : إنى امرأة عقيم .. وأرى أن تتزوج من فتاة ولود . . .

قالت : إنَّ ما فكّرتَ فيه عَدْلٌ لا يَشُوبُه ظُلم ، ومِن العدْلِ والمروءَةِ أَنْ أَحتمِل كلَّ شيءٍ من أَجْلِك ، وما دُمْت تعدِلُ بَيْنى وبينها فإنِّى راضِية ، فاطمئِن وتزوَّج .

قال الغَنِىّ : ولكنّ العَدْلَ لاَ يدفَعُ الغيرة .

قالت : مَهْما يُبالغ الزَّوج فى عَدْلِه وإحسانِه فلَنْ يَدْفعَ الغيرة ، ولكِنّ المرأَةَ العاقلةَ الطيِّبة بعَقْلِها وَصلاحِها تَمْحُو كُلَّ أَثَرٍ للغيرة ، فاطمئِنّ وتَزَوَّج ؛ وستَجدنِى مُسْتريحةً راضية ، حَريصَة على راحتِك .

وقع قولُ الزوجة فِى نفس زَوجها مَوْقعَ القبول والرضا ، وأَخْذًا بالحزم فى هذا الأَمر الخَطِير لم يشأْ أَنْ يتَزَوَّج من أَىِّ بيت ، وأَن يسقُطَ علَى أَية زوجة ،

ولكنَه كان حَريصاً على أَن يختار زوجةً طيبةً صالحة ، لتكون زوجتُهُ الأُولى فِى مأْمنٍ من شرها ، أَوْ هِىَ أَقرب ، وليدفع عَن بيته ما عسَى أَن يكون بيْنهما من تنافسٍ وتحاسُدٍ وتباغضٍ فاجتهدَ فِى البحْثِ عنْ زَوجَتِه الجَديدة ، حَتّى عَثَر عليْها فِى أُسْرةٍ كريمة ، فكانتْ مثلاً حَسَناً فِى الجَمال والخُلُقِ الكامِلِ ، وشاء الله أَنْ يَهبَ له مِنْها غُلاماً جَمِيلا ، فَرحَ به أَبُوهُ فَرحاً عَظِيماً .

* * *

رَبَّى الغِنِىّ ابنَه هذا تربية حَسنَة ، وعلَّمَه القِراءة والكتابَة والعلُوم التى وصَلَ إِليْها الإِنسان فِى زَمنِه ، وعلمه ضُروبَ الفُروسية والفتُوّة ، فكان الفارِسَ البَطل ، الذِى لا يُشقّ له غُبار . ولما كبِر واشتَد وبَلغَ الرُّشد ،

أسندَ إليْه الإشْرافَ علَى العُمالِ الذِين يَشْتغِلون فِى ضَيعتِه ، ولمّا لمس منْه الذَّكاءَ ، وحُسْنَ السّياسة ، والدِّقّةَ فى أُموره ، والاسْتِقامةَ والأَمانَة ، وَكَل إليه إدارةَ شُئون ضيْعَتِهِ ، وجَعلَه أَميناً علَى خَزائنه وأَمْوالِه ، يتَصرَّف فِيها كما يَشَاء ، وبِهذَا أَصبحَ كلُّ شىءٍ فِى قبْضةِ يَمِينِه ، وَوَجدَ أَبُوه مِنْه ما أَرضاه وأَراحَه ، وانشَرحَ بِهِ صَدْرُه ، فَأَحَبّه حُبًّا عَظِيماً ، وكانَ زينَتَه فى دُنياه وكانَ لأُمِّه مِن أَجلِه منزِلةٌ كرِيمةٌ فى نَفْس أَبيه .

وجدَتْ زَوجةُ الغَنِىِّ الأُولى أَنَّها دُونَ زَوْجتِه الجَدِيدة ، وأَنَّها عاطِلٌ من الوَلدِ الذى يُعلِى شَأْنَها ، ويرفَعُ ذكْرَها فِى نَفْسِ زَوجِها ، فاشتعَلتْ نِيرانُ الغَيرة مِن ضَرتِها فى صَدْرِها ، وأَصبحَتْ لاَ تُطِيقُ

كانت العجوز ماكرة داهية خبيرة بألوان الخديعة والحيل

عَلَيْها صَبْرًا ، فكَظمتْ غَيظَها وحُزنَها فى صَدرها ، وشَكت حَالَها إلى امرأةٍ عجوز كانتْ تَزورُ قَصرَ الغَنِيِّ كثيرًا ، لتَحصُلَ علَى إحْسانِ الغَنِيِّ ومَعونتِه ، وصَوّرت للعَجوزِ جَسَامةَ غَيظِها وقالت لَها :

إنَّنِى لا أُطيقُ صَبْرًا علَى هذِه الحال ، ولَنْ أَستريحَ حَتّى أُفَرّق بَين زَوجِي وابْنِه ، وأَحرقَ أُمَّهُ بِنارِ فِراقِه . ولكِن أَعجَزتْنِى الحِيلَة ، وضَللتُ السَّبِيل إلى تَحقِيق رغْبَتِى ونَيلِ مُرادِى .

كانت العجُوزُ ماكِرةً داهِية ، خَبيرةً بألوانِ الخديعةِ والحِيل ، فقالت :

نَحنُ نَعلمُ أَنَّ الغَنِيَّ قد أَسْلم شُئونَ أَموالِه وضَيعَتِه إلى ابنِه ، وأَنَّ ابنَه قامَ بِتدْبيرِها علَى أَحْسن حال ،

وأَنهُ مِنْ أَجْلِ ذلكَ نزَلَ فى قَلبِ أَبيه مَنْزِلةً عظِيمَة ، وأَصْبَح أَحبَّ إليه مِن نَفسِه ، ومن العَسِير القَرِيبِ من المحال زَحزَحةُ الولدِ من قَلبِ أَبِيه ، حَتَّى يَغْضبَ عليه ويَطْرُدَه .

أَما الولدُ فمِن المحالِ أَنْ يُفَارِقَ أَباه ، وهُو يَرَى أَنه صَاحبُ الأَمْرِ والنَّهى ، وأَنَّه أَحَبُّ إلى أَبِيهِ من نفسِ أَبِيه ، وذَلك سرُّ عَجزِك وضَلالِك .

وبَعْد هذا فأَنتِ تَعْلَمِين أَنكِ من أُسرة فَقِيرة ، وأَنَّكِ تَسْتمتِعين فى بيْتِ زَوجكِ بِنعْمَتِهِ وإِحْسانِه ، وتَمرَحينَ فى بَسْطةٍ مِن مَالِه وخَيْره ، وتَعلمين أَنَّ التَّفرِيقَ بَينَ الولَدِ وأَبيه إِساءَةٌ وأَذًى لزَوْجِكِ الَّذِى يَكفُلُك ، فكَيْفَ طَوّعَتْ لَكِ نَفْسُكِ مُقابلَةَ النِّعمةِ والإِحْسانِ بالجحُودِ والإِساءَة ، والخَير الوفير بالشَّرِّ

والأَذَى ؟! أَلاَ تَعلمِين أَنه إِذَا انكشَفَ أَمْرُكِ لزَوجِكِ طَرَدَك من بَيتِه بكلمةٍ تَخرُجُ من فَمِه ، وزَوَاكِ فى بَيْتِ أَبِيك تُقاسِينَ فِيهِ شِقْوَة الفَقْرِ والحاجَة ؟

وأَدْهَى مِن ذَلكَ كُلِّه وأَمَرّ أَنك تَطْمَعِين فى أَنْ أُشاركَكِ فى ضَلالك ، وأَن أَكونَ جَاحِدةً مِثلَك ليكونَ الضَلالُ ضلالَينْ ، والجُحود جُحودَين .

أَلاَ فَلْتعلَمِى أَنِّى امْرأَةٌ كبيرة ، أَعرِفُ الإِحْسانَ وأَهلَه ، وزَوجُك هذا قد غَمرنِى بإِحْسانِه ومَعونتِه وفَضْله ، ولَنْ أَنْسَى له ذَلك ماحَييت ، ولازِلتُ الشاكرَةَ لَه مَعْرُوفَه ، المُقِرةَ بإِحْسانِه وفَضْلِه ، وبعد هَذا فإِنّى أعْتقِد أَنّى أَدَّيتُ الواجِبَ بنَصِيحتى لك ، وأَنتِ وشأنكِ ، وسَلامِى عَليك .

* * *

تركَتْها العَجُوزُ ومَضَتْ إلى زوَجة الغَنى الجَدِيدةِ فى مَقْصُورَتها ، وجَلستْ معَها تُحدّثُها وتُسَلِّيها كعادتِها ، ثم نالَتْ منْها بَعضَ الإِحْسان ، وخَرجَتْ من عِندِها شَاكِرَةً حامِدَة .

أَمّا الزّوجَةُ الأُولَى فقَدْ تركَتْها العَجُوز مُبَلْبَلةَ الفِكْر ، تائِهةً بيْنَ الخَير والشَّرِ ، تدفعها الغيرة إلى الأَذَى ، وترشدُها النَّصِيحةُ إلى الهُدَى ، وقَضَتْ ليلتَها سابِحَةً فِى حُمّى التَّفْكير ، لا يغمضُ لها جَفْن ، ولا يَسْتَقِر بها مَضْجَع ، وانتَهى بِها الأَمْرُ إلى تلبيةِ غَيرتِها ، والكُفرانِ بنعْمةِ زَوجها ، والإِصْرارِ على تَنْفِيذِ رغبتِها ، والعَمل على التفرِيق بَين الابْنِ وأَبيه ، والبحث عن الأَسْبابِ التى تحُقّقُه ، وعَزَمَتْ على أَنْ تُفْهِم العجوزَ أَنَّها استجابت لنَصيحتِها ، وأَنّها لَنْ

تُفكِّر فِى أَذًى تُقدِّمُه لزَوجِها وَلِىِّ نِعْمَتِها وكافِلِها .

جاءتها العَجوزُ فى الصَّباحِ لتَعْرِفَ منهَا ما عَزَمَتْ عَلَيْه بَعْد أَنْ أَسْدَتْ إليْها نَصِيحتَهَا الغَالِيةَ .

اسْتَقبَلتْها الزوجَةُ الأُولى مُنْشرحَةَ الصَّدْر مُبْتَسمةً فَرِحةً وقالت لها :

أَشكُرُكِ شكْرًا جَزيلا ، فقَدْ هَدَيتِنِى حِين ضَللت ، وجعلْتِنى أُبْصِرُ حِين عَمِيت ، وحُلتِ بَينى وبَيْن شَرٍّ لاَ يقدمُ عَليْه إنْسان . وقَد رجَعَ إلىَّ رُشْدى ، وعَرفْتُ مكانَتِى مِنْ زَوْجى ، ومكانَةَ زَوجِى مِنِّى ، ولَنْ أَكُون له إلاَّ الزَّوجَةَ المُطِيعة ، الوفِيَّةَ المُخْلِصة ، والفَضْلُ راجعٌ إليْك ، وأَرجُو منك أَنْ تُسْدى إلىَّ مَعرُوفاً جَدِيدًا .

قالت : وما هُو ؟

قالت : أن تَكْتُمِى فى صَدْرِكِ أَمْرِى ، ولاَ تَذكرِيه عِندَ أَحد غَيرى ، والحمد لِلّهِ الذِى قَدَّرَ ولَطَف .

قالت العَجُوز : اطمَئِنّى ولاَ تَخافى ، واحْذَرِى أَنْ يَعُودَ إِلَيْكِ ضَلالُك ، فيُصِيبَك بِشَرِّه وأَذاه .

قالت : لَنْ أَضِلّ بَعدَ ذَلك ، وسَتَجِدِيننَنِى خَيْرَ زَوجَةٍ وَفِيةٍ لزَوجِها .

• • •

كان هَذا العامل الذِى اتّخَذَه الغَنِىّ مُسْتشاره يَعْطِفُ علَى ابْنِه فى حَداثَتِه ، ويُعْنَى بشُئونِه ، ويُوفّرُ لَه أَسبابَ راحَتِهِ وسُرورِه ، فشَبّ ابنُ الغَنِىّ فى أَحضانِ عَطفِه والاهْتِمامِ بشأْنِه ، فمَال إِلَيْه وأَحبَّه ، ونَمَا هَذا الحُبُّ علَى مَر الأَيَّام ، ولما بَلغَ ابن الغَنِى مَبْلَغَ الرِّجال

ووَكلَ إليْه أَبوه شئُونَ الضيْعةِ والأَموال ، اتّخَذ منْ هَذا العاملِ أَخاً كرِيماً ، وصَدِيقاً حَمِيمًا ، وجَعله رَئيساً للعُمال ، وأَدَارا شئُون الضَّيعة علَى أَسَاسٍ من التَّعاون والمحبَّة والإِخْلاَص ، فأَتَتْ أُكُلها ضِعْفين ، وأَصْبَحَت الضَّيعةُ ضَيْعَتيْنِ ، وكانَ الابنُ لِأَبَويْهِ قُرَّةَ عَيْن ، وكانَ لأُمِّه مفْخرةً تفتَخِرُ به عِندَ كلّ مُناسبَةٍ وفى كُلّ حِين .

التَهبت الغيرةُ فِى صَدْرِ الزّوْجةِ الأُولى ، واشْتَدّ غَيظُها وحِقْدُها إِذْ وَجدَتْ ضَرّتَها بَولدِها النّجيب كأَنَّها شَجرَةٌ طَيِّبةٌ أَصْلُها ثابتٌ وَفَرْعُها فى السَّماءِ ، ووجَدتْ نَفْسَها مِنْ غَيرِ وَلد لَها كأَنَّها شَجرةٌ خَبِيثَةٌ اجْتُثّتْ مِن فَوقِ الأَرضِ مَالَها مِن قَرار ، فعَمِيتْ عن الرّشْدِ ، وقادَتْها الغيرةُ إِلى الغَىّ ، فأَخذتْ تُفكّر لتُلقِىَ ضرتَها فى

الجحيم ، فتمحُو مَفْخَرتَهَا بفَقْدِ وَلدِها ، والتّفرِيق بينَهُما ، وتجْعلُها تَقْضِى نَهارَها ولَيْلَها حَزينةً باكيَة.

خَلتْ زوجةُ الغَنى الأُولى إلى نَفْسِها فى غُرفتها تُفكّرُ وتُدبِّر ثلاثَ لَيالٍ مُتواليات ، وفى كُلِّ لَيْلةٍ تَبيتُ ساهِرةً تَطوفُ بِفِكْرها باحِثَة ، لعَلَّهَا تَعثُر علَى حِيلةٍ نافِعة ناجِحة ، تُمكِّنُها مِن اغتيالِ ابن زَوْجها وافْتِرَاسِه .

• • •

كان مَوْسِم زِيارةِ النَّاس للكعبة فى مكّة قَدْ حَان ، وأَخَذَ الرّاغبُونَ مِنْهم فى الاسْتِعْدَادِ لِلزِّيارة ، وَفِى اللَّيلةِ الثالثَةِ من ليالِى تفكيرها سَقطَتْ عَلَى بَالِها فكْرةٌ أَنْعشَتْها ، وانْشَرحَ لَها صَدْرُها ، إذْ وجَدتْ فِيها هَدَفَها وأُمْنيَّتَها ، وفى الصَّباح بَدأَتْ تَخْطُو

خُطُواتِها السَّرِيعةِ إلى تَنْفِيذ فِكرتِها .

اِختارتْ ثلاثة رِجال شِدَاد أَقوِياء مِنْ أَشْرار الْمدِينة ، وَفِى جَلسَة سِرِّيَّة فى بَيْتِ أَبِيها ، شَكتْ إليْهم حَالَها ، وأَطْلعَتْهم علَى فِكْرتِها ، وقالَت :

سأُسافِرُ إلى مكة ، ومَعِى ابْنُ ضرَّتى ، سَببُ شِقْوَتِى وبُؤْسِى ، وهَوَانِى علَى نَفْسِى ، وأَنْتم تُسَافِرُونَ معَنا إلى مكة فى هذَا الموسم ، عَلى شريطةِ أَنَّنِى لا أَعْرِفُكم ولا تَعْرِفونَنِى ، وهنَاك فى مكة تحْتالون عَلَى ابْنِ ضَرَّتِى ، وتأْخُذونه إلَى العَرَاءِ وَتَقتُلونَه ، وسَأُعْطِيكم لِقاءَ ذلِكَ نَفقاتِ سَفَرِكُم ذِهَاباً وجَيئَة ، ومُكافأَةً ماليَّةً سَخِيةً تُرضِيكُم مِن مَالِى الَّذِى ادَّخَرْتُه سِرًّا فى بَيتِ زَوْجِى ، وكانتِ المُكَافأَةُ سَخِيةً مُغْرِية ، وهُمْ يأْلَفُون الشَّرَّ والأَذى ، فَرضُوا

اختارت ثلاثة رجال أشداء أقوياء . . .

بِمَا قالتْ . وَوَعدُوها أَنْ يكتُمُوا الأَمرَ ويُسافِروا مَعها إلى مكة ومَع المسافِرين مِنْ أَهْلِ المدينَة لزِيارَةِ الكعبة .

فتح المُسافِرون من أَهْلِ المدِينة بُيوتَهم ، ومنهمُ الرِجالُ الأَشْرارُ الأَربعة ، لاستقْبالِ المَسلِّمين والمُوَدِّعِين مِنْ أَقْرِبائِهم وأَصْحابِهم ومَنْ يَعرفُونَهم ، واتَّفَقُوا على أَنْ يُسافِرُوا مَعاً ، وأَنْ يَرْكَبُوا فِى فُلْكٍ واحِدةٍ تَحمِلُهم إلَى أَرضِ الحجاز .

كانَ عاملُ الغَنِىّ وصَديقُ ابْنهِ قدْ عَرَفَ أَنّ صَدِيقَه ابْنَ الغَنِى رَاحِلٌ إلَى الكعبة لزِيارتها مَعَ زَوْجة أَبِيه . فَأَصَرَّ على أَلاَّ يَتْركَه يُسافِر مَع زَوجةِ أَبِيه وحْده . وأَنَّه لا بُدَّ أَنْ يُصاحبَه ، ووَجَد هذا رغْبةً

وهَوًى فِى نفْسِ صَدِيقه .

• • •

أَقلَعت السّفينَةُ تحملُ المُسافِرين مِنْ أَهْل المدينَة ، وفيهم زَوجةُ الغَنِى وابنُه والعاملُ صَدِيقُه والأَشرار الثلاثة ، وأَبْحرت فى البحر الّذِى كُلّما شَعَر أَنَّه يَحملُ أناساً ثابُوا وأَنابُوا إِلَى رَبِّهم ، يؤُمّون البيت الحرامَ طلباً للمَغْفِرة، فرِحَ بِهم فاطمأَنّ وهَدأَ ، وكُلّما أَحَسَّ البحر أَنَّه يَحْملُ غَدْرًا وخِيانَة ثارتْ أَمْواجُه ، وعَصفَتْ رياحُه ، وغَامَتْ سماؤُه ، وأَظْلمَ جَوُّه ، وأَمْطرت سُحُبه ، ومَلأَ السّفينَةَ خَوْفاً ورُعْباً .

دَخَل هَؤُلاءِ المَسافِرون مدينَةَ مكة المملوءَةَ بالزَّائرين والزائراتِ من كُل بَلد وسَكَنُوا فى بيوت اسْتَأْجَروها ، ليَعِيشُوا فِيها مُدّةَ إِقامَتِهم ، وكانَ الأَشرارُ الثّلاثةُ

يَرقُبونَ ابنَ الغَنِيّ سِرًّا ، ويَعرفُون حَركاته وسَكناتِه ، وتَوزَّعُوا مُراقَبته ، كُلّ مِنْهم لَهُ نَوْبَتُه .

• • •

استَيقظَ ابن الغَنِيِّ من نَومه بَعدَ طُلوع الفَجْر ذاتَ يوم ، وخَرَجَ من البيتِ تارِكاً فيه زَوجةَ أَبيه وصَديقَه نَائِمَين ، وذَهبَ إلى الكعبة ؛ لِيَستغْفرَ ربّه ويدعُوَه أَن يكشفَ عَنْه الضر إذا نزل به ، وأَنْ ينَجّيه من كُلِّ مَكْرُوهٍ يُصِيبُه .

كانَ الذى علَيْه نَوْبةُ المراقَبة ، مِن الأَشْرَار الثلاثة قَدْ باتَ يَترصَّدُه ، فلما رَآه قد خَرَجَ وحْده . سَار مِن ورَائِه يَتْبعُه حَتّى اسْتَقر فى الكعبة ، ثمّ مضى إلى زُملائِه وعُصْبَتِه فى بَيتهِم ، وهُنَاكَ أَخْبَرهم أَنّ ابْن الغَنِيّ خَرَجَ من البيْت وحْدَه ، وهُو الآنَ فى

الكعبة، ويُخيّلُ إلىّ أنّه سَيمكُث بِها طَويلا .

قال أَحدُهم : إنّه الآن وَحْده ، وليسَ مَعه أَحدٌ من أَصْحابه ومَنْ يَعرفُونه ، وتلْكَ الفُرصَةُ الّتى لبِثْنا نَنْتَظِرها ، فَهيّا بِنَا إليه لنَجْتَمِع به ونَحْتالَ علَيْه حتّى نَخْرُجَ به إلى العَراءِ ، وهُناك نَقْضى علَيْه ، ثمّ نَعودُ إلَى بيْتِنا آمِنِين .

مَضَى الأَشْرارُ إلى الكعبة مُسْرِعين ، وهناكَ جَلَسُوا بجوارِه فى هَيئَة التّائِبين النّادمِين ، يسْتَغْفِرُون ربّهم ، ويَنْدَمونَ علىَ ما فَرَط مِنْهم ، ويعلنون توبةً إلى الله صريحة خالِصَة .

وَلما رَأَوا ابن الغَنىِّ قد سكَت ، التَفت واحِدٌ منهم إليْه، وأَخذ يهنئه بِتلْكَ الزّيارةِ الميْمونَة ، ويَدْعُو الله

أَن يكتُبَ له زِيارات غَيرَها ، وانْضَم إليْه زميلاه ، وأَخذ الجميع يَهنّئُونَه ، ثُمّ أَخَذوا يتحدثُون عن الكعبة وتَارِيخها ، وكانَ حديثاً لذِيذًا شائِقاً أُعجِب به ابنُ الغنِيِّ ، وفى تِلْك اللحظَةِ اقْترح أَحدُهمُ أَن يَجولُوا فى مكّة ويَطوفُوا بها ، حَتّى يَقفُوا على كثير من آثَارها ، ويَزْدادُوا مَعرفةً بِها ، وفَرِحَ ابن الغَنِى بتلْكَ الفِكْرة فقَال :

هَيَّا بِنا ، فتِلْكَ فرصَةٌ قَدْ لاَ تَقعُ فى أَيدينا ، وبعدَ لحظةٍ كانُوا يَجولونَ فى المدينَة ، ثمُ ساقَهم التَّجوالُ إلى خارج المدينَة ، وكانَت الشَّمسُ قد طَلَعتْ ، ولا تَزَالُ تَلْمسُ الأُفق ، وبَدا لَهم العَراءُ برمالِه الجميلة ، وهضابِه المُتَناثِرة ، علَيْه حِليةٌ من أَشِعةِ الشَّمسِ الذَّهَبية ، فاسْتمالَهم مَنظرُه الجميل

إليْه ، وسَحرَتْهم الطبيعةُ بجمَالها ، فوجدُوا أَنْفسَهم يَسِرون فى العَراءِ ويَسيرُون ، حَتّى بَعُدوا عَنِ المدِينَةِ بُعْدًا ساحِقاً ، وأَمِنوا علَى أَنفُسِهم أَن يَراهُم مِنْها أَحَد ، ثم أَشار أَحدُهُم إشارة كانوا قد اتفقُوا عليها فانْقضُّوا عليه دفعَةً واحِدةً وأَمْسَكُوا يَدَيْهِ ورقبته يريدُونَ أَنْ يَخْنُقوه ، فأَيقَن من عَملِهم هذا غَدْرًا بَشِعاً ، وعَزْماً مُبَيَّتاً علَى قَتْله ، وكانَ شُجاعاً قَوِيًّا ، فانْفلَتَ من أيديهم بقُوّة ، وضَربَ بجُمع يَدِه بَطْنَ وَاحدٍ مِنهم ضَرْبةً مُمِيتَةً مَزَّقَت أَمْعَاءَه ، فسقَط علَى الأَرضِ مَيِّتاً لا يتحرك ، وكان بالعراءِ حِجارةٌ كبِيرة مُبعثَرة ، فأَسرع زميلاه إليها ودَقَّا رأْسَه بِها فَوقَع علَى الأَرضِ مغشِيًّا علَيْه ، وحَسباه قد ماتَ وفاضَتْ رُوحُه ، فتركاهُ وانفلَتا إلى مكة راجِعين ،

ولما قَربا منها مَشَيا الهُوَيْنَى كأَنَّهما قادِمان من نُزْهة خلَوية ، واتّصلَ أَحَدهُما بزَوجة أَبيه خِفيةً وأَخْبرَها أَنهم قَتلُوهُ فى العَراءِ وأَنه قتل واحدًا مِنْهم ، وأَنَّهما تركاه طَعاماً لطيور الفَلاةِ وَوحُوشها ، ففرحت ودفنَتْ فَرحتَها فى صَدْرِها .

• • •

استَيقظت زوجَةُ الغَنىّ والعامل صَدِيق ابنِه من نَومِهما فَلَم يَجداه ، فظنُّوه قد ذهَبَ إلى الكعبة ، وأَنه عما قَرِيب راجعٌ إليْهم ، ولما طالتْ مدّةُ غَيبتِه أَظهرتْ زَوجةُ أَبيه قَلقَها عَليْه ، وتحيَّر العامِلُ فى أَمْرِ غَيْبتِه الطَّوِيلَة ، فأَسْرعَ من فَوْرِه ، وخَرَجَ إليْهِ باحِثاً عَنْه ، وتَرك زوجةَ أَبيه فى البَيت راجِية أَنْ تكُونَ غيبَتُه هَذِه غِيبَةً أَبَدِية ، حَتّى جاءَها أَحدُ

رِجالِها الأَشرارِ الخَونَة ، وبَشّرَها بقَتْله .

أَمّا الصّدِيقُ فإِنّه ذهب إِلى الكعبة ، وجعَلَ يَبْحث فى نَواحِيهَا وَمخابِئِهَا فما وجده ، فَخَرج منها إِلى المدِينَة جائِلاً فى شَوارِعِها وطُرقها متفَقّدًا متاجِرَها ودَكاكينها فما عَثرَ له علَى أَثَر ، فانْفَلتَ إِلَى العراءِ طائِفاً حَوْلَ المدينة ، ولمّا لمْ يجِدْهُ ابتأَس وتَحيّر ، واستمّر سائِرًا يُفكِّر وهو جائِلُ البصَر ، وقال فِى نفسِه .

إِن صديقى شُجاعٌ فَتِى ، شَديد قَوِىّ ، عاقِلٍ ذكِى ، فإِلَى أَيْن ذَهب ؟ وكيْفَ اخْتفَى ؟ وعلَى أَيِّةِ حال فإِنّىَ لَن أَعُودَ إِلى أَبَويْه حَتّى أَعُودَ فى صُحبتِه ، ولَن أَسكتَ عن طَلبِه حَتّى أجدَه أَو أَقِفَ علَى مَصِيره.

وبَيْنما هُوسائِر وقَع بَصَرهُ على آثار أَقدام لجماعةٍ ممتَدَّة فى العَراءِ فقالَ فى نفْسِه :

لَعلّهُ سلَكَ هذِه السبيلَ مع السَّالكِينَ ، ولا بُدَّ لى من السّيْر فِيها مَهْما يَبلُغْ خَطرُها ، ووَجدَ نَفْسَه قد مشَى قُدُماً فَوق هذِه الآثار ، وعجبَ الصَّدِيق أَن رأَى تِلك الآثار ممتدَّة فى العَراءِ ، دونَ أَنْ تَنتَهى إلى غَاية ، ولكِنّه معَ هذا العَجَب أَحَسَّ من نَفسه كأَنّ دافِعاً يدْفعهُ إلى الاسْتِمرار فى سَيرِهِ ، وخُيلَ إليْه أَنّ هَذا الدّافع النَّفسىَ يعدُه ويُمَنِّيه بالعُثور علَى ضَالَّتِه ، وأَنّه سَيلتَقِى بصديقه ابن الغنى .

جدَّ الصديق فى سيرهِ ونَشِط ، غيرَ عابئٍ بِما عَسَى أَن يُصِيبَه من مكرُوهٍ فى فَلاَةٍ مُوحِشَة لا أَنِيسَ بِها ولاَ سَند ، ثم رأَى أَمامَه علَى بُعْدٍ شَبَحَيْن لرجُلَين ، أَحدُهما قد اسْتَلْقَى على ظهره ، والآخَر قد جلَسَ مُطْرِقاً تَحمل رأْسه ذِراعاه ، فزَادَ نشاطُه فِى سَعْيه حتى كانَ

أمام صَدِيقه ، فَفرِحَ واستبشَر ، ولكِنّه عجِبَ وابتَأَسَ حِين وجَدَه مُصاباً فى رَأْسِه فى تلِكَ البُقْعَةِ المنقَطِعة عَن العُمران ، فسأَلَهُ قائِلا :

أخى وأَعَز إنسانٍ إلى نَفسِى ، مَنْ فَعل بِك هذا ؟ وكَيفَ قَدِمتَ إلى البُقعةِ الموحشَة ؟

• • •

كان ابْن الغَنِى قَد أَفَاق من غَشْيته ، فجلَس تِلك الجلسَة البئيسة ، حَتّى يَقْوَى على المسير ، ثم يَستأْنفَ سيره عائدًا إلى المدينَة ، ولما وجَدَ صَديقَه عِنْده فَرِحَ ونَشِطَ قَلِيلا وقَال :

خَدعنِى ثلاثة رجَال من بلْدتِنا ، وهمُ فلان وفلان و .. وأَغْرَوْنى بالتَّنَزه معاً فى العَراء ، والاستِمتَاعِ بجمَال الطّبيعَة ، وسرْنا نَتسلَّى بالحدِيث ، ونَستَمتع بمناظِر

الطبيعة التى لم تَمتدَّ إلَيها يد إنْسان ، حتى وصَلْنا إلى هذا المكان ، وعلَى بغْتَةٍ وجَدْتهم قد قبضوا علَى يَدىَّ ورقبتى يُريدونَ أَن يخنقونِى ، فانْطلَقت من أَيديهم بقُوة ، وضربتُ واحدًا منهم بجمع يَدىفى بَطنِه ، فَسَقط مَيّتاً ، وهو فلانٌ هَذا الذى تَراهُ مُسْتَلقياً على ظَهْره ، أَما الرجلان الآخران فإنهما عَمدا فى سُرعَة الخائِف على نَفسِه ، إلى تِلكَ الحجارَة المبَعثَرة ، ذاتِ النّتُوءِ البارزة الحادة ، وأَمسكَ كل مِنْهما حجرًا ، وهجم عَلىَّ وكانَت الضَّربةُ الأُولى فى رأْسِى ضَرْبةً مُمِيتة ، فوقَعتُ مغْشيًّا علَىّ ، ولا أَدْرى ما فَعلاه بعد ذلك ، ويَبْدُو لى أَنَّهما حَسِبانى قُتلت وفارقتْنى الحياة ، ولهذَا تَركانِى ورَجَعا إلى المدِينَة ؛ ولَوْ عَرفا أَنّنى ما زِلتُ حيًّا لأَجْهزا علَىّ ، وكنْتُ

الآن فى الآخِرَة .

قال العاملُ الصّدِيق : الحمدُ لله الَّذى نَجّاكَ مَنْهم وكَتَب لكَ السَّلامَة ، وقَام إليْه فَرَبَط رأْسَه بما مَعَهما من المَنَادِيل ، ثُم نَهض فى إعْياءٍ ، ومَشَى مَعَه مُتَحاملا عَليْه ،ورَجَعا إلَى مكة .وسَكَنَا فى بيتٍ غير بيتهما الأول ، وأَقاما فيه مُخْتَفين ؛ حَتّى لا يَراهُما أَحدٌ من أَهلِ بَلْدتِهما ، وعزمَا علَى البقَاءِ فِيها حتَّى ينتَهِىَ مَوسِمُ الزيارَة . ويَرحلَ الزائِرُون والزّائراتُ إلَى بِلادِهم . وحَتَّى يُشْفَى ابنُ الغَنِىّ مِن جُروحه . وتَرتدّ إلَيْه عافِيتُه .

ولمّا حَسُنَتْ حالُ ابن الغَنِى ، وقَرُب من الشّفاءِ سأَله العاملُ صديقُه :

هَلْ تَعرِف سِرَّ هَذا الحادِث الأَلِيم ، والأَسْبابَ

التى دَفَعَتْ رجالاً من بَلْدَتِنا إِلَى أَنْ يَغدُروا بِك ويَقتلُوك ؟

فقال :

لقَدْ حدثْتُ نَفْسِى كَثيرًا عَسَى أَنْ أَقِفَ عَلى سِرِّه وأَسْبابِه فَما اهتَدَيتُ إِلَى شَىءٍ مِنْها ، ولا أَزالُ منْه فى حَيرَةٍ ودَهْشةٍ وعجب .

فقال العامل :

قَدْ عَرفْتُ مِنْك أَنّهم لم يأْخُذوا ما كانَ مَعكَ من نُقود .

قال : لم يأْخُذوا مِن جُيوبى دِرْهَماً وَاحِدًا ، ولو أَرادُوا أَنْ يَسلبُونى ما أَبْقوا مَعِى شيئاً ، فقد كنْتُ مَغشِيًّا علَىّ ، لا أَتحركُ ولا أَتورّك .

قال العاملُ الصّديق : حِينئِذ كان القَتلُ مَقْصُودًا

لذاته ، ولم يكُن وسِيلة لسلْب المال أو غيره ، ولا يَسْعى إلى قَتْلك إلاّ مَن له مَصْلحةٌ فيه ، ويَبْدُو لِى أَنَّ زوجَةَ أَبيك ، وضَرّةَ أُمّك هى صاحِبَة الفكرة فى قتلك ، ومُدَبِّرة الوَسِيلة إليْه .

قال ابن الغَنِى : لاَ أَذكرُ أَنىّ أَسأْتُ إِليْها فى حَياتى ، وقد كنتُ حَريصاً على أَنْ أُعامِلَها كما أُعاملُ أُمِّى . فمَا الَّذِى يدفَعُها إلى ارْتكابِ تِلك الخطيئة الكُبْرى ؟

قال الْعامِل : لقَد كرِهَتْ أَن يكُون لضَرّتها ولَدٌ نَجيبٌ مِثْلُك تَعتزّ به وتفْتَخِر ، وهِىَ عَقيمٌ لاَ ولَد لها ، فَسَاقَتْها الغيرةُ ، ودفَعَها الحِقْدُ والحَفيظة ، إلَى ارتكاب هذِه الخَطيئَة ؛ لتُطفِئَ فى صَدْرها نارَ الغيرة ، وتَشفِى نَفسَها مِن أَوجاعِ الحِقدِ والحسَدِ والحفِيظة ، وستُظْهِرُ لَكَ الأَيامُ صِدْقَ ظَنِّى وحَدْسى .

قال ابن الغَنِى : اللهُ حَسْبى ، وقَدْ وكلتُ إليْه أَمْرَ الانْتِقامِ لِى .

انْتَهى الموسِم ورَحَلَ الوافِدُون والوافِداتُ لزِيارةِ الكعبة إلى بِلادِهِم ولم يبق فى مكة مِنْهم إلا ابْنُ الغَنَّى والعاملُ صَدِيقُه .

ورَجعتْ زَوْجَةُ الغَنِىّ إِلَى بيتهِ رُجُوعَ الثَّكْلَى الّتِى فَقدت واحِدَها فِى حِجْرها ، وبالغَتْ فى البُكاءِ وَمظاهِرِ الحزْنِ الأَلِيم ، بعد أَن فَقدت ابنَ زوجِها فى مكة وفِى الطَّرِيقِ إلى بَلْدَتها وفى بَيتِ زَوجها نِفَاقاً ورِياءً حَتّى تَسْلَم من الشُّبْهَةِ والظِّنَّة ، أَمَّا بَيْنَها وبَيْنَ نَفْسِها فَقَد كانَتْ على أَحْسَنِ حالٍ من الفَرَحِ والغِبطَة .

. . .

قَصَّت المرأةُ على زَوْجِها فى أَنين وتَوَجُّع وبكاء اخْتِفاءَ ابنِه والعامِلِ صَدِيقهِ ، الّذى خرجَ من البَيْتِ فى طَلَبِه ، والبَحْثِ عَنه . وذَاعَ أَمْره فى المَدِينة ، وتتابَعت الوفُود إلى الغَنِىِّ لمُواساتِه ، وتَخْفِيفِ الحادِث عَنْ نَفسِه ، وكانَ كثِير من الطَّيِّبِينَ والطَيِّبَات يُبشرونه على الدَّوام بِرُجوع ابنِه وصَدِيقه سالِمَيْن .

أما أُمُّه فَقدْ أَضْنَاهَا الأَسَى ، وكادَتْ تَبْيضُّ عَيْناها من الحزْنِ والبَكاءِ عليه ، وكانت إذَا اجْتَمعت النّساءُ حَوْلَها وأَخَذْن فى مُواساتِها ، واستِنْكارهن اسْتِسلامَها إلَى الأَحْزانِ ، وعَدَم اعْتِصامها بالصَّبْرِ الجميل تقول لَهُن :

نارُ الحَىِّ حَيَّةٌ لا تَنطَفِئُ ولا تخمد .

أَمّا ضَرّتها العَقيم فقد وجَدتْ من حالِها البئِيسَة كُلّ

فَرْحَةِ ومَسَرّة ، وإنْ كانَتْ لا تَزالُ أَمامَها وأَمَام زوجِها وأَمام الناسِ حَزِينةً باكيَة .

• • •

مَرَّت الأَيّام وتَمّ شِفاءُ ابْنِ الغَنِيّ ، وارتَدّتْ إليْه عافِيتُه وصحتُه ، وعَزم علَى الرّحيلِ هو والعامِلُ صَديقُه إلى بلدَتِه .

وفِى صَبَاحِ يَوم ركبا فى السَّفِينَة ، ثُم أَقلعتْ بِهِما ، وجَعلتْ تَجرِى فَوْقَ سَطْحِ الماء كَأَنَّها النَّسِيمُ الرُّخاء ، تظِلُّهما سَماءٌ صافِيَة الأَدِيم ، ساطِعَةُ الأَنوار بالنَّهار ، قد ازَّيَّنَتْ بكواكِبِها الزَّاهِية المنيرة فِى اللَّيل ، فكأَنّ الطَّبيعةَ بِهُدوئها وجمالِها تُعلِن فَرحتَها بنَجاةِ البَرِىء مِنْ كَيدِ الغَادِر الأَثِيم .

دخَل ابنُ الغَنِيّ مدينة أَبيه ماشِياً ومَعه العاملُ

أما أمه فإنها ضمته إلى صدرها ....

صديقُه ، وما كادَ الناسُ يرونَه حتَّى انكَبّوا عليهِ مُهَنِّئين بقدومه سَالماً ، وسارَ إلى قَصْرِ أَبيه فى جَمْعٍ من المهنِّئين الفَرِحِين بقُدومهما سالمَيْنِ ، وكان الجَمع يزيدُ ويكْثرُ عدَده كلّما خَطا إلى قَصرِ أَبِيه خَطْوة ، وانتَشَر نَبأُ قُدومِهما فى أَنحاءِ المدِينة فى لمحِ البَصر ، ودخَلَ قَصرَ أَبيه فوجَد أَبَويْه ينْتظِران قُدومَه فى شَوقٍ عَظيم ، واحْتضَنَه أَبُوه وقَبّل رأْسَه ، كما قَبّل هُو يَدَىْ وَالدِه ، أَما أُمُّه فإنَّها ضَمَّتْه إلى صَدرِها ، وأَطبقَتْ عليْه بِيَدَيْها ، ثم سقَطتْ من شِدَّة الفَرحة بين يدَيْه مغْشِيًّا عليْها ، فأَسْرعوا إليْها وأَسْعفُوها حتّى أَفاقَتْ ، وفى الحال أَقام أَبُوه حَفَلات الأَفْراح ، وذَبَح الذَّبائحَ ، وأَطعم الأَغْنياء ، وأَشْبَع الفُقَراءَ ؛ شكرًا لله الذى حفِظَ ابنَه ، ونجّاهُ من شر زَوجته

الآثمة الجاحدة .

• • •

أما زَوجة أبيه فإنَّها لم تَفْرح كَثيرًا ؛ لأَنّ الله عَجّل لَها بالعُقوبَة قَبْل أَنْ يعودَ الابْن والعاملُ صَدِيقُه ، فأَصَابها بمرضِ الجُذام الذى شَوَّه خَلقَها ، ومَسخَ صُورتَها وأَلزمَها فِراشَها ، ولم يُمهلْها المرضُ طويلا بعدقُدوم ابن زَوجِها ، فَقضى علَيْها بَعد أُسْبوع من قُدُومه ، وشُيِّعَتْ إلَى قَبرِها تَحمِل حَسْرَتَها وخزْيها ، فقَد كَشَفَ العامِلُ عَن أَمرها ومكرِها ، وأَبانَ للنَّاسِ كيفَ خانَتْ ومَكَرت وغَدَرت بابن زَوجِها ولِيِّ نِعمتِها حِين سأَلُوه عن سَبب اختِفائِهما وغَيبَتِهما .

• • •

ذكَر ابن الغنى الحادِثةَ كما وقَعتْ ، وذكَر أَسماءَ الأَشْرار الثلاثة ، وعجِبَ الناسُ حينَ وَجدوا أَن الله الذى يُدافع عن الطَّيبِينَ من عبادِه قد عَجلَ لهُم بالعُقُوبة الواعظة ، فهذه زوجة أَبيه قد ماتَتْ بمرض الجُذام ، أَما الشريران ، فإنَّ واحداً مِنْهما سقَطَ عليهِ جدارُ بيتهِ فماتَ لسَاعتِه ، والآخر قَد أُصِيبَ بالعَمى فجأَة ، وهو الآنَ رهِينُ بيْتِه ، يَعيشُ على ما تَجود بهِ أَكُفّ المحْسِنين ، وقد لَحَظَ الناس عليْه بَعدَ قدومه من حجّه النَّدَم وكَثْرة الاستغفار كأَنه يَبرأُ إلى الله من إثْمٍ عَظيم فَعله ، وأَنه حِينَ بلغَه نبأُ قُدوم ابن الغنى استراحت نَفسُه وحَمِد الله الذِى حفِظه ونجاه ، ثم جىءَ به وحكى القِصَّة كما حكَاها ابن الغنِى ، وقال له :

إنّ زوجَة أبيك استقلّتْ بتدبير خُطَّتها ، وهىَ الّتِي خَدَعَتْنا ودفعتْنَا إلَى تَنْفيذِ خُطَّتها التى دبّرتْها بمكرِها ، فلعْنَة الله عَليْها حَتّى تُبعثَ ، وتَلقى جَزاءَها من أَحْكم الحاكمِين .

أَما أَنت فإنى أَرجو لك السّلامة فى دِينكِ وأَنْ تَصْفَح عَنّى فقَد نَدِمت وتُبت إلى الله . وكفانِى ما أَصابنى من العَمى والفاقة .

قال ابن الغَنى : وكَلتُ أَمرِى إلَى ربِّى ، واللهُ وَلِىُّ الصابِرِين .

فرغ الوالد من حكاية « عاقبة الأشرار » ، فسر الأولاد وفرحوا ، ثم قال الوالد : موعدنا الليلة التالية ، حيث أحكى لكم حكاية أخرى من « حكايات الليالى » . . طاب مساؤكم ، وتصبحون على خير . . .

رقم الإيداع	١٩٩١ / ٧٢٣٧
الترقيم الدولى	ISBN 977-02-3420-6

١ / ٩١ / ١٥٨

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)